Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 370

كيف يعمل العقل: القصدية

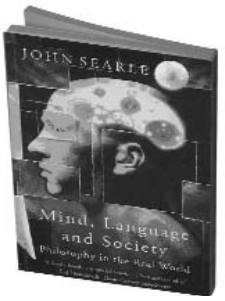

تأليف: جون سيرل

ترجمة: أ. سعيد الغانمي *

تركز الجزء الأكبر من نقاشنا للعقل، حتى الآن، على الشعور، وقد يوحي هذا التركيز بالانطباع أن العقل في جوهره ميدان من الذاتية مغلق على ذاته. ولكن الدور التطوري الأساسي للعقل، على العكس من ذلك، يتمثل في ربطنا بطرق معينة بالبيئة، وبالناس الآخرين على وجه الخصوص. تربطني حالاتي الذاتية ببقية العالم، والاسم الذي يطلق على تلك العلاقة هو «القصدية». وتشمل هذه الحالات الشعورية الاعتقادات والرغبات، والمقاصد والإدراكات، وكذلك ضروب الحب والمكاره، والمخاوف والآمال. فـ«القصدية» إذا شئنا التكرار، هي المصطلح العام لجميع الأشكال المختلفة التي يمكن أن يتوجه بها العقل، أو يتعلق، نحو الأشياء أو الحالات الفعلية في العالم.

وكلمة (القصدية) كلمة غير محظوظة، ومثل كثير من الكلمات غير المحظوظة في الفلسفة، نحن ندين بها للفلاسفة الناطقين بالألمانية. توحي الكلمة أن القصدية، بمعنى التوجه، يجب دائماً أن تكون مرتبطة بـ «القصد»، بمعنى النية، مثلما أقول مثلا: إنني أقصد أو أنوي الذهاب إلى السينما الليلة. (ليس في الألمانية مشكلة، لأن كلمة (Intentionalitat) لا تتطابق مع كلمة (Absicht)، وهي الكلمة التي تطلق على النية أو القصد بالمعنى اليومي لنية الذهاب إلى السينما). لذلك يجب أن نضع في اعتبارنا أن الاستقصاد في الإنجليزية هو شكل واحد من أشكال القصدية.

** كاتب ومترجم عراقي يقيم في إستراليا.*

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 372

اللاشعورية التي تصيّر بعضها حالات عقلية؟ الجواب الوحيد هو أن بعض الحالات اللاشعورية للدماغ قادرة على التسبب بظواهر عقلية شعورية.

سيساعدنا التمثيل على إيضاح هذه النقطة. حين أطفئ جهاز الحاسوب، تختفي جميع الكلمات والصور من على الشاشة. ولكن ما لم أكن قد ارتكبت خطأً فادحاً، فإنها لا تتوقف عن الوجود. بل تستمر في البقاء مخزونة في قرص الحاسوب الصلب على شكل آثار مغناطيسية. فما الواقعة الخاصة بهذه الآثار المغناطيسية التي تصيرها كلمات وصوراً؟ هناك وعند ذلك الحين، ليست هي على شكل كلمات وصور. وحتى لو استعملت زجاجة مكبرة قوية، لن أستطيع أن أرى الكلمات والصور على القرص الصلب. وكونها ما زالت كلمات وصوراً حقيقة تثبتها حقيقة أن الآثار المغناطيسية يمكن أن تنقلب إلى كلمات وصور حين أشغل الجهاز. ويبقى هذا صحيحاً حتى حين لا أكون قادراً في الواقع على تحويلها لوجود خلل في وحدة المعالجة المركزية (CPU) أو ما يماثلها. والحاسوب ليس مثل خزانة الأضابير، على الرغم من استخدامنا المتكرر لاستعارة خزانة الأضابير في وصف الحواسيب. حين أضع نصوصي وصوري في خزانة أضابيري، فإنها تبقى كما هي تماماً في صورتها الأصلية. غير أن حالاتنا العقلية اللاشعورية ليست مثل الكلمات والصور في خزانة الأضابير، التي تحافظ على شكلها الأصلي كما هو، بل هي مثل الكلمات والصور في جهاز الحاسوب حين لا تكون على الشاشة. لهذه الحالات العقلية شكل شعوري، غير عقلي، مختلف تماماً، لكنها تبقى حالات عقلية لاشعورية، قادرة على التصرف سببياً بطرق مماثلة للحالات العقلية الشعورية، حتى لو لم يوجد، في الوقت المحدد الذي تكون فيه لاشعورية، شيء سوى الحالات البيولوجية-العصبية والعمليات التي يمكن وصفها وصفاً بيولوجياً عصبياً خالصاً.

يجري هذا التصور عن اللاشعور ضد النظرات المهيمنة في العلم الإدراكي. يعتقد تشومسكي، على سبيل المثال، أن الأطفال حين يتعلمون لغة إنسانية طبيعية، فإنهم

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 373

الشعور والقصدية

ما العلاقة بين الشعور والقصدية؟ لقد ذكرت في الفصل السابق أن الحالات القصدية ليست كلها شعورية، وأن الحالات الشعورية ليست كلها قصدية. غير أن التداخل بين الشعور والقصدية ليس بالأمر العرضي. وها هي ذي العلاقة بينهما: لا يمكن أن تُفهم الحالات الدماغية التي ليست بشعورية بوصفها حالات عقلية أو ذهنية إلا بقدر ما نفهمها بوصفها قادرة، من حيث المبدأ، على التسبب بحالات شعورية. على سبيل المثال، اعتقادي أن كلنتون هو رئيس الولايات المتحدة يمكن أن يكون شعورياً أو لاشعورياً. مثلاً، يمكن أن يُنسب لي هذا الاعتقاد حقاً حتى حين أغطُّ في نوم عميق. ولكن أية واقعة تتطابق مع ذلك الادعاء حين أكون غائباً عن الوعي أو الشعور تماماً؟ الوقائع الموجودة فعلياً إذاً، هي الوقائع التي تنطوي على حالاتي الدماغية ويمكن وصفها وحدها بألفاظ بيولوجية-عصبية خالصة. إذاً ما الواقعة الخاصة بهذه الحالات التي تجعل منها اعتقادي اللاشعوري أن كلنتون هو الرئيس؟ الواقعة الوحيدة التي تجعلها حالة عقلية هي أنها من حيث المبدأ قابلة للتسبب بجعل تلك الحالة حالة شعورية. فالحالة العقلية اللاشعورية، حتى حين تكون لاشعورية، هي شيء من النوع الذي يمكن أن يصير شعورياً. ويجب أن أقول «من حيث المبدأ» لأننا يجب أن نتصور أن هناك أنواعاً من الحالات لا يستطيع المرء نقلها إلى الشعور بسبب من الكبت، أو إصابات الدماغ، أو ما شابه ذلك. ولكن إذا كانت الحالة حالة عقلية لاشعورية أصيلة، إذاً فيجب أن تكون في الأقل، من نوع الحالة التي يمكن أن تكون شعورية. لذلك نحتاج إلى تمييز الحالات اللاشعورية للدماغ، مثل إفراز النواقل العصبية للأندريالين (norepinephrine) في صدع الاشتباك العصبي، عن الحالات العقلية اللاشعورية، التي تُدرك في الدماغ -كما في اعتقادي، حين أغط في النوم، أن كلنتون هو الرئيس. والآن، ما دام الواقع المتكرر الوحيد للدماغ، حين أكون غائباً عن الشعور تماماً، هو اللاشعور، فما الواقعة الخاصة بهذه الحالات

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 374

اللاشعوري، مثل اتباع القاعدة الشعوري، يجب أن يكون اتباعاً لمحتوى القاعدة القصدي، ويجب أن يعمل في الزمن الواقعي. وزمن عمل القاعدة، وزمن السلوك الذي تحكمه القاعدة هما زمن واحد بعينه. وهذه السمات غير محفوظة نمطياً في حالة التفسيرات العلمية الإدراكية التي تسلم باتباع قاعدة لاشعورية، بالقواعد التي لا يمكن أن تصير شعورية حتى ولو من حيث المبدأ.

تطبيع القصدية:

صدام آخر مع المواقف التلقائية

يتمثل هدفنا الشامل في هذا الكتاب في بيان الطريقة التي يمكن فيها إظهار أن مختلف الظواهر المحيرة، مثل قضايا العقل واللغة والمجتمع، هي جزء من العالم الفيزياوي، وهي متصلة بالكواكب والذرات والهضم. في حالة القصدية، يُفترض أن تكون هذه المشكلة ذات صعوبة استثنائية؛ لأن من العسير أن نرى كيف يمكن لـ«التعلق» في قولنا: يتعلق بـ (أن يكون سمة فيزياوية للعالم بأي معنى كان. يعبر جيري فودور، مثلاً، عن نوع شائع من الحيرة حين يكتب: «إذا كان التعلق واقعياً فيجب أن يكون شيئاً آخر فعلاً». والحافز إلى بيان أن القصدية هي حقاً «شيء آخر» هو جزء من الحافز الإقصائي، الاختزالي الذي يسري في أوصال حياتنا الثقافية. ولا يكمن الهدف في تفسير ظواهر معينة بغية التخلص منها باختزالها إلى أشياء من النوع الأقل حيرة. هكذا، مثلاً، نختزل الألوان إلى معاملات انعكاس الضوء، ومن ثَمَّ نبين أن الأحمر «ليس سوي» انبعاث فوتون في معدل عام لستمائة جزء من بليون متر.

بغية فهم الحافز إلى اختزال القصدية إلى شيء أكثر جوهرية، تأملوا الموقف المحير الآتي. افترضوا أنني أعتقد، وأنا بالفعل أعتقد ذلك، أن كلنتون هو رئيس الولايات المتحدة. مهما يكن هذا الاعتقاد شيئاً آخر، فإنه يظل حالة في دماغي. والآن

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 375

يتعلمونها؛ لأنهم يتبعون شبكة من القواعد اللاشعورية لنحو كلي، غير أن هذه القواعد ليست من الأشياء التي يمكن للطفل نقلها إلى الشعور. فالقواعد هي قواعد «تخمينية» لنحو كلّيّ. ويمكن للغوي أن يصوغ القاعدة في ألفاظ تقنية. قد يقول اللغوي: إن الطفل يتبع قاعدة «انقل ألفا» (*) (Move Alpha)، ولكن لا يفترض أن الطفل يفكر حقاً مع نفسه بأن يقول لنفسه: (انقل ألفا). بل في الحقيقة لا يصح أن نفترض أن الطفل يمتلك القدرة على أن يفكر بنقلة ألفا. كلا، بل إن «نقلة ألفا» هي طريقة اللغوي في تمثيل العمليات في الدماغ التي لا يستطيع الطفل ولا أي شخص سواه أن ينقلها إلى الشعور. ما يجري في دماغ الطفل هو متوالية، تخمينية خالصة، من الأصفار والآحاد، أو مكافئ وظيفي عصبي للأصفار والآحاد تتم معالجتها في الدماغ. غير أن هذه العمليات ليست من النوع الذي يمكن نقله إلى الشعور.

أعتقد أن النظرة التي ترى أن لدينا حالات عقلية لاشعورية لا تفسر السلوك سبباً، حالات تمتاز بالعقلية، ولكنها مع ذلك ليست من نوع الحالات التي تعمل شعورياً، هي نظرة متناقضة وغير متماسكة. وهي نظرة متناقضة؛ لأنها لا تستطيع أن تجيب عن سؤال: ما الواقعة الخاصة بهذه العمليات الدماغية التي تجعلها عقلية، وتضفي عليها سمات الحالات العقلية القصدية؟ ما الفرق بين تلك العمليات الدماغية غير الشعورية التي هي ليست عقلية على الإطلاق والحالات العقلية اللاشعورية الأصيلة، التي حين تكون لاشعورية، تكون حالات دماغية؟ بوجيز العبارة، يجب أن تكون الحالة العقلية الشعورية شيئاً مفكراً فيه شعورياً، إذا ما أرادت أن تكون حالة عقلية على الإطلاق، في مقابل كونها عملية دماغية غير شعورية.

وهذه النقطة مهمة أهمية فائقة لتفسير الإدراك الإنساني. فالحالات العقلية الأصيلة تؤدي حقاً وظيفة سببية حين تكون شعورية، وحين تكون لاشعورية على السواء. فكروا في اتباع قاعدة «السياقة على الجانب الأيمن من الطريق»، على سبيل المثال. تؤدي القاعدة وظيفتها سبباً شعورياً ولاشعورياً أيضاً. غير أن اتباع القاعدة

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 376

أعتقد أن أكثر ما قاله الفلاسفة لمحاولة حلّ هذه المعضلة قاصر على نحو مريع. يقول دانييل دينيت: إن المغالطة القزمية ليست في الحقيقة مغالطة؛ لأننا نستطيع أن نُحِلَّ محلَّ القزم الذكي جيشاً كاملاً من الأقزام الذين يزدادون غباءً. ويقول لنا فودور: إن القصدية ليست سوى قضية موضوعات في العالم تُحدث «مسكوكات» من الكلمات والرموز الأخرى في رءوسنا. لن أمضي في انتقاد هذه الأجوبة مفصلاً هنا لأنني أريد أن أقضي الوقت مطوراً تفسيراً من نوع مختلف تماماً. هكذا، بإيجاز، لا يلبي جواب دينيت المطلوب؛ لأنه يتركنا مع المغالطة القزمية. أما الأقزام الذين يزدادون غباءً فيظلون في حاجة إلى القصدية إذا ما أرادوا الاستمرار في وظائفهم القزمية. ولا يفي جواب فودور بالغرض؛ لأن العلاقات السببية غير القصدية ستكون دائماً قاصرة عن تفسير القصدية. تستطيع دائماً أن تحصل على علاقات سببية من دون القصدية. افترضوا أن مرأى الأبقار، والأبقار وحدها، يجعلني أعطس. مع ذلك، فإن «مسكوكاتي» من الآثار البقرية بصيغة عطاس ليس لها قصدية: بل هي مجرد عطسات. وهي لا تمثل الأبقار؛ لأنها لا تمثل أي شيء. افترضوا أن الحصان أحياناً يسبب لي العطاس لأنه يبدو كالبقرة. ومن ثَمَّ فإن مسكوكاتي من الآثار الحصانية بصيغة عطاس تعتمد اعتماداً زائفاً على ما لدي من مسكوكات آثار بقرية: إذ لا تجعلني الخيول أعطس، إذا لم تعطسني الأبقار. ينطوي هذا المثال على جميع شروط القصدية لدى فودور، ولكن لا وجود للقصدية فيه.

ما هي إذاً الطريقة الصحيحة لـ«تطبيع» القصدية؟ الخطوة الأولى هي أن ندرك أن الطريقة التي كنا نطرح بها السؤال هي طريقة مغلوطة تماماً في تناول القضية. فنحن نأخذ حالة قصدية معزولة -اعتقادي أن كلنتون هو الرئيس- ونطابق بينها وبين حالة في دماغي، ثم نسأل: كيف تستطيع هذه الحالة الدماغية أن تمتلك هذه القدرات المميزة؟ هذا شيء نمطي في المخارج الفلسفية: لحل اللغز يجب أن ننظر إلى المسألة دون إجراء الافتراضات المسبقة العادية التي كنا نجريها في الماضي.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 377

ها هي ذي المعضلة. كيف يمكن لهذه الحالة في دماغي -التي تتكون من أشياء كالنبضات العصبية والترابطات في القشرة الدماغية، التي تنشطها النواقل العصبية- أن تنوب عن شيء آخر؟ كيف يمكن لحالة في دماغي أن تقطع كل تلك المسافة إلى البيت الأبيض في واشنطن، وتلتقط شخصاً واحداً من ملايين؟ حقاً، كيف يمكن لحالة في دماغي أن تنوب عن شيء ما، أو تتعلق به، أو تمثله؟ هل يُفترض أن نفكر في أنني أرسل إشعاعات قصدية لمسافة آلاف الأميال، طوال الطريق إلى البيت الأبيض؟ ما أشقَّ الأمرَ! ولماذا لا يكون شيئاً أكثر مشقة أن نفكر أن الشمس مشرقة، ومن ثَمَّ فأنا أرسل إشعاعاتي القصدية لمسافة ثلاثة وتسعين مليون ميل إلى الشمس؟ لاحظوا أنه لا جدوى من القول: إن الأمر يقتصر على أنه يشبه نيابة الكلمات عن الأشياء، وأن اعتقادي الذي يتعلق بكلنتون ينوب عن كلنتون، بالطريقة نفسها التي تنوب فيها كلمة كلنتون عن «كلنتون» الشخص، لأن ذلك سيدفع اللغز خطوة إلى الوراء. كيف يمكن للكلمة أن تنوب عن كلنتون أو أي شيء آخر؟ لا يمكن أن يكون الجواب سوى أن الكلمة تنوب عن كلنتون؛ لأننا نستعملها قصدياً لكي تمثل كلنتون. ولكننا الآن عدنا للمشكلة التي بدأنا بها. إذ كيف يمكنني، بمجرد نطق كلمة أو وضع علامة على الورق، أن أحيلَ إلى شيء بعيد، أو في الحقيقة أشير إلى أي شيء على الإطلاق؟ لا يختلف الصوت الذي أصدره عن أي صوت آخر، والعلامات التي أدونها على الورق ليست سوى علامات. ما الشيء الخارق الذي أقوم به لأضفي عليها هذه القدرات المذهلة؟ بوجيز العبارة، تكمن المشكلة في أننا لا نستطيع أن نفسر قصدية العقل بالاحتكام إلى قصدية اللغة، لأن قصدية اللغة تعتمد أصلاً على قصدية العقل. إذا فكرنا أن للاعتقاد في دماغي قصدية؛ لأنني أستعمله بالطريقة نفسها التي أستعمل بها الجمل التي تصدر من فمي، فسنكون بإزاء مغالطة قزمية(*). أي إنني يجب أن أفترض أن هناك قزماً صغيراً في داخل رأسي يفرض القصدية على الاعتقاد بالطريقة نفسها التي أفرض بها القصدية على الجملة.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 378

الفلسفي في نظريات القصدية. نحتاج أن نميز القصدية التي يمتلكها البشر والحيوانات جوهرياً من ذلك النوع من القصدية الاشتقاقية للكلمات والجمل والصور والمخططات والكتابات. إضافة إلى ذلك، نحتاج إلى أن نميز هذين النوعين من القصدية عن نسبة القصدية استعارياً، التي لا تنطوي حرفياً على ادعاء بالقصدية، بل هي مجرد «كأن». تأملوا أنواع الادعاءات الثلاثة في الأحكام الآتية.

١. أنا جائع جداً الآن.

٢. في الفرنسية: « Jai grand faim en ce moment» تعني أنا جائع جداً الآن.

٣. النباتات في حديقتي جائعة للمغذيات.

تحيل هذه الأحكام الثلاثة جميعاً إلى الظاهرة القصدية للجوع، غير أن وضع النسب الثلاث مختلف تماماً. ينسب الحكم الأول قصدية داخلية لي. وإذا كنت أمتلك الحالة المنسوبة لي، فأنا أمتلكها بصرف النظر عما يعتقده أي شخص آخر عنها. وينسب الحكم الثاني أيضاً قصدية بالمعنى الحرفي، لكن قصدية الجملة الفرنسية ليست داخلية، بل هي مستمدة من القصدية الداخلية للناطقين بالفرنسية. وهذه الجملة نفسها يمكن أن يستخدمها الفرنسي؛ ليعني بها شيئاً آخر، أو ربما لكي لا تعني أي شيء على الإطلاق. وبهذه الدلالة فإن معناها ليس بداخلي للجملة، بل هي مستمدة من الفاعلين الذين يمتلكون قصدية داخلية. وكل معنى لغوي مستمد قصدياً (هناك المزيد من التفصيل عن هذا في الفصل السادس).

ولا ينسب الحكم الثالث أية قصدية بالمعنى الحرفي على الإطلاق. فـ«الجوع» الذي تظهره نباتات حديقتي ليس سوى أداة تشبيه خالص «كأن». فهي تذوي لفقدان المغذيات، وأنا أصف وضعها تشبيهاً لها بالناس والحيوانات. أنا أعزو إليها قصدية لا تمتلكها في الواقع، وإن كانت تتصرف وكأن لديها قصدية. ولذلك فهناك نوعان من القصدية الأصيلة، الداخلية والمستمدة، غير أن قصدية التشبيه بـ«كأن» ليست نوعاً ثالثاً؛ لأن نسبة نوع ثالث من قصدية التشبيه بـ«كأن» ليست سوى نسبة مجازية

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 379

بوجيز العبارة، ما نجده في مناقشات القصدية هو الصدام نفسه مع المواقف التلقائية التي نجدها في مناقشات مشكلة العقل- الجسم. والصدام هنا أكثر دقة، ولكنه موجود. يتمثل أول موقف تلقائي في افتراض أن من الحقائق الواضحة أن لدينا حالات قصدية حقيقية. على سبيل المثال، تتعلق اعتقاداتنا بالأشياء والموضوعات والحالات الخارجية في العالم. لكن الموقف التلقائي الآخر هو أنه في عالم يتألف بكامله من كيانات فيزياوية، من المستحيل أن يضطر كيان فيزياوي واحد إلى أن يتعلق فقط بآخر. والطريقة القياسية في الفلسفة المعاصرة لمحاولة حل هذا الصدام هي في العثور على علاقة أخرى بين الموضوعات الفيزياوية واختزال القصدية إلى تلك العلاقة. والعلاقة المفضلة هذه الأيام هي التسبيب: أي إمكانية أن يتعلق موضوع ما بآخر؛ لأنه يشير إليه في بعض العلاقات السببية.

هذا شيء نمطي في المعضلات الفلسفية التي تبدو غير قابلة للحل. وقد قُدِّمَ لنا بديلان، لا يبدو أن أياً منهما مقبول بذاته، ولكن لا يبدو أيضاً أن أياً منهما مما يمكن التخلي عنه. ولكن يقال لنا: إن علينا أن نختار بينهما. وهكذا يصبح تاريخ الموضوع معركة بين الجانبين. في حالة الشعور، ومشكلة العقل- الجسم، قيل لنا: إن علينا أن نختار بين الثنائية، التي تصرّ على عدم اختزالية ما هو عقلي، والمادية، التي تصرّ على أن الشعور يجب أن يختزل ويقصى لصالح تفسير مادي أو فيزياوي للعقل. والطريقة التي تبنيناها لحل المشكلة في حالة علاقات العقل- الجسم -وهذا شيء نمطي في الحلول عند المواقف التلقائية المتصادمة في الفلسفة- هو أن نمضي إلى ما وراء المشكلة؛ لنتفحص الافتراضات التي يسلم بها الطرفان. ولقد كان الدرس الذي تعلمناه عند بحثنا لمشكلة العقل- الجسم هو ألاّ نقبل هذه الافتراضات التي يسلم بها الطرفان المتنازعان دون مساءلة.

وقبل تطبيق هذه الدروس والعبر على دراسة القصدية، نحتاج إلى إجراء تمييز حاسم. فالإخفاق في إجراء هذا التمييز الواضح هو السبب في كثير من الخلط

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 380

الشعور والقصدية. والشعور والقصدية، وإن كانا سمتين للعقل، فهما سمتان مستقلتان عن الملاحظ بمعنى أنني إذا كنت شاعراً أو لدي حالة قصدية، كأن أكون عطشان، فإن هذه السمات لا تعتمد في وجودها على ما يعتقده أي شخص يوجد خارج إحساسي. فليست هي، مثل جمل اللغة، مجرد أشياء تكون ما هي عليه؛ لأن من هم في الخارج يعتقدون أنها ما هي عليه. في الفصول السابقة، لقد طبّعنا الشعور، ببيان كيف يمكن أن يكون ظاهرة طبيعية بيولوجية. ومهمتي الآن هو أن أطبّع القصدية ببيان كيف يمكن أن تكون القصدية الداخلية عند البشر والحيوانات الأخرى جزءاً من العالم الطبيعي.

القصدية مطبّعةً

كظاهرة بيولوجية

تمضي الأمور على النحو الآتي. دعونا نبدأ بأبسط الحالات. تتمثل أكثر الأشكال البيولوجية بدائية للقصدية في أشكال الرغبة التي تشمل الحاجات الجسدية كالجوع والعطش. كلاهما قصدي لأن كليهما من أشكال الرغبة. الجوع رغبة في الأكل، والعطش رغبة في الشرب. وها هي ذي الطريقة التي يعمل بها العطش. يتسبب فقدان الماء في النظام بأن تفرز الكليتان الرينين (أو بروتين ضغط الدم) الذي يؤثر في سائل الأبيتيد الدوار، الذي يطلق عليه «الشد الوعائي» فيسبب الشد الوعائي 2 (angiotensin2) . تصل هذه المادة إلى الدماغ، وتهاجم أجزاءً من المهاد التحتي (الهايبوثالامس)، وتسبب زيادة في معدل الرسائل العصبية في تلك الأجزاء. وهذه بدورها تجعل الحيوان يحس بالرغبة الشعورية في الشرب.

والآن، رجاءً لا تقولوا: إنها لا يمكن أن تسبب هذا الشيء؛ لأنها يجب أن تعبر ذلك الشق الفاصل بين الجسم والعقل، تلك الفجوة التفسيرية بين ما هو عقلي وما هو فيزياوي. فنحن نعرف أن مثل هذه العمليات البيولوجية-العصبية تحدث، كحقيقة

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 381

أو استعارية. والقول: إن كياناً ما لديه قصدية التشبيه بـ«كأن» ليس سوى طريقة في القول: إنه يتصرف وكأن لديه قصدية، بينما هو في الحقيقة لا يمتلكها.

والتمييز بين القصديتين الداخلية والمستمدة هو حالة خاصة من تمييز أكثر جوهرية بكثير بين سمات العالم التي هي السمات المستقلة عن الملاحظ، مثل القوة والكتلة والجاذبية، والسمات التي تعتمد على الملاحظ، مثل وجود سكين، أو كرسي، أو جملة في اللغة الإنجليزية. والقصدية الداخلية مستقلة عن الملاحظ -إذ لديَّ حالة جوع بصرف النظر عما يظنه الملاحظ عنها. أما القصدية المستمدة فتعتمد على الملاحظ- فهي مجرد علاقة بالملاحظين والمستخدمين إلى غير ذلك، على سبيل المثال، للجملة الفرنسية معناها الذي لها.

هذان التمييزان مهمان في قضايا أخرى سنناقشها لاحقاً، ولكن لنقتصر في الوقت الحاضر على القصدية الداخلية. كل قصدية مستمدة هي قصدية مستمدة من الداخلية ومستقاة منها. ومن المهم أن نؤكد ذلك؛ لأن كثيراً من الكتاب في الحقبة الحالية عاملوا القصديتين المستمدة والتشبيهية كنموذج، وحاولوا أن يفسروا من خلالهما القصدية الداخلية. وهكذا تعامل القصدية المستمدة في عمليات الحاسوب بوصفها نموذجاً لدراسة القصدية الداخلية في الدماغ الإنساني، بل تعامل نسبة التشبيه بـ«كأن» أحياناً بوصفها النموذج الصحيح لفهم أنواع النسب التي نعزوها إلى الإنسان حين نعزو إليهم قصدية داخلية. ويمكن التعبير عن الأطروحة التي أطورها، وهي أطروحة تختلف عن النموذج السائد والعقيدة القويمة في العلم الإدراكي، على النحو الآتي. افترضوا أن لدينا علماً مكتملاً بالفيزياء والكيمياء والأحياء. في نهاية الأمر إذاً ستترسخ بعض السمات بوصفها سمات واقعية مستقلة عن الملاحظ، أو سمات داخلية للعالم الواقعي. في الفيزياء تشتمل هذه، مثلاً، على الجاذبية والكهرومغناطيسية. وفي الأحياء، مثلاً، تشتمل على انقسام الخلية، والانشطار النصفي والتمثيل الضوئي. وأنا أزعم أنها يمكن أن تشتمل أيضاً على

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 382

بالرؤية، مخططاً للكيفية التي تسبب فيها آثار الفوتونات في الشبكية تجربة بصرية في الدماغ. وينطوي أي كتاب مدرسي عن البيولوجيا العصبية على فصل عن الرؤية يشرح الكيفية التي تسبب بها مثيرات النهايات العصبية المحيطية تجربة بصرية. ولست أريد أن أوحي بالطبع أن لدينا الآن الجواب النهائي عن الكيفية التي تسبب بها العمليات الدماغية تجارب بصرية. ونحن لا نعرف الجواب عن ذلك السؤال، وليس من المرجح أن نعثر على الجواب في المستقبل القريب. المسألة التي أقترحها هي فقط أننا نعرف شكل الجواب. فنحن نعرف أننا نبحث عن آليات سببية في الدماغ.

والآن، وقد وصلنا إلى هذه النقطة، فبمجرد أن نصل إلى التجربة البصرية الفعلية، تكون لدينا قصدية داخلية كنا نبحث عنها. ولا توجد طريقة أستطيع أن أمتلك بها هذه التجربة البصرية التي أمتلكها حقاً دون أن يتراءى لي في الأقل أن هناك شاشة حاسوب أمامي.

غير أن الشكي سيسأل ما التجربة البصرية التي تجعل تجربة الترائي نفسها ترى شاشة حاسوب؟ لاحظوا أي سؤال غريب هذا. أعتقد أن الجواب الوحيد عنه هو أنه لمن صلب هذه التجربة نفسها، بوصفها حدثاً شعورياً في العالم، أن يكون لها هذا النوع من القصدية على وجه التحديد. وإنه لجزء من التجربة البصرية، حين أمتلكها، أن يتراءى لي وكأنني أنظر في شاشة حاسوب أمامي. وهكذا فإن الدعوة إلى تطبيع القصدية والشعور بأن الشكل الوحيد للتطبيع هو شكل من أشكال الاختزال إنما هو خطأ مزدوج. أولاً أن هناك خطأ التساؤل عن الكيفية التي يمكن فيها للمادة المجردة أن تدلّ على شيء، ويكمن خلف ذلك خطأ أعمق في التساؤل عن الكيفية التي يدلُّ بها أي شيء. والهدف الخفي وراء الخطأ الثاني هو اقتراح أنه ربما لا يمكن أن يدل أي شيء دلالة داخلية. والطريقة التي نستبعد بها الخطأ الأول هي توسيع لحلنا لمعضلة العقل- الجسم، فنكتفي فقط بتخطي السؤال للنظر في افتراضاته المسبقة. حينئذ نجد أن الافتراض المسبق هو إما أن تكون القصدية شيئاً غامضاً لا تفسير له

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 383

بيولوجية مجردة، وتسبب مثل هذه الحالات القصدية الشعورية كالجوع والعطش. تلك هي الطريقة التي تعمل بها الطبيعة. وهناك دليل إضافي على دور المهاد التحتي في التسبب ببعض أنواع العطش توفره حقيقة أن المرضى الذين يعانون من بعض أنواع الأورام الخبيثة التي تضغط على المهاد التحتي يشعرون بالعطش دائماً وبدون انقطاع. لا يمكن لأية كمية من الشراب أن تروي ظمأهم. أما المرضى الذين يعانون من ضمور في الأجزاء نفسها من المهاد التحتي فلا يشعرون بالعطش أبداً.

لاحظوا أيضاً أن هناك فائدة تطورية هائلة تدخرها بعض أنواع هذه الظواهر القصدية الشعورية. فمثلما أن هناك فائدة تطورية للإحساس الواعي بالألم -لأن الحيوان يحاول أن يقاوم ويتجنب الجروح التي تسبب الألم لجسده، ويعامل هذه الجروح والإصابات الموجودة بما يقلل من ألمها- كذلك فإن هذه الإحساسات الشعورية بالعطش تقود الحيوان إلى استهلاك الماء الذي يعتمد عليه وجوده.

لا بدّ من كلمة عن المؤهلات: فالنبذة الفعلية التي أقدمها هي نبذة تتوافر في أي كتاب مدرسي معياري عن علم الأحياء العصبي، ولا شكَّ أننا كلما ازددنا علماً ستبدو قاصرة على نحو عجيب، وعتيقة وموغلة في التبسيط. ولا شكَّ أن الوقائع في المهاد التحتي لا يبدو أنها كافية بمفردها لتفسير الحالات الشعورية؛ إذ يجب أن تكون لها روابط من جميع الأنواع بالأجزاء الأخرى من الدماغ. غير أن النقطة التي يهدف إليها هذا المثال هي كيف يمكن لنبذة من هذا الطراز أن تعطي تفسيراً عصبياً، ومن ثَمَّ طبيعياً لبعض أشكال القصدية. ما أن تعطيني مثل هذا التفسير البيولوجي لأي شكل من أشكال القصدية، حتى يكون لديَّ إسفين مغروز لتقويض كامل شبكة الافتراضات التي جعلت من البدائل تبدو الافتراضات الوحيدة المتاحة. ما أن نرى كيف يمكن أن يكون العطش شكلاً من أشكال القصدية البيولوجية الطبيعية، حتى لا يكون من العسير جداً إذاً مدُّ النوع نفسه من التفسير إلى الموجهات الحسية، مثل الرؤية واللمس. والحقيقة أنني قدمت في الفصل الأول، فيما يتعلق

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 384

مهمة تتعلق بطبيعة الاشتقاق وشكل القصدية. ولكن لا يمكن أن يوجد سؤال مهم على غرار: كيف يمكن لهذه التجربة البصرية الشعورية أن تكون حالة تراءٍ لرؤية شيء ما؟ أي إننا بمجرد أن تكون لدينا تجربة بصرية بكل ما فيها من سمات، وبمجرد أن نعطي تفسيرات بيولوجية- عصبية ونفسية لهذه السمات، فلا يمكن أن يكون هناك سؤال فلسفي مهم آخر حول الكيفية التي يمكن بها لحالة تراءٍ أن ترى شيئاً ما، لأن الترائي برؤية شيء ما ليس شيئاً مضافاً إلى التجربة البصرية على نحو ما تضاف علاقة الإحالة على شخص معين إلى كلمة كلنتون. فالتجربة هي مجرد تجربة تراءٍ برؤية شيء ما.

ولم يكن إلحاحنا السابق على التمييزات بين القصدية الداخلية من ناحية، والمستمدة والتشبيهية من ناحية أخرى، وإلحاحنا المماثل على أولية الشعور، بالأمرين البريئين. فهما ما يمكّننا من التغلب على الصراع مع الموقفين التلقائيين.

بنية الحالات القصدية

حتى الآن كنت أتحدث عن القصدية بألفاظ غامضة إلى حد ما. القصدية، كما شرحتها، هي ببساطة تلك السمة للحالات العقلية التي تتوجه أو تتعلق بموضوعات وحالات فعلية خارج ذاتها. وتماماً مثلما يمكن إطلاق سهم على هدف ليخطئه، أو حتى إطلاقه مع عدم وجود هدف، كذلك يمكن توجيه الحالة القصدية نحو هدف كما يمكن إساءة توجيهها، أو الإخفاق فيها لعدم وجود موضوع هناك. يمكن للطفل أن يعتقد أن هذا الرجل هو «سانتا كلوز»، بينما هو في الحقيقة عامل في مخزن العمارة، ويمكن للمرء أن يعتقد أن الأشباح حاضرة في هذا البيت، حتى لو لم يكن وجود لأشياء كالأشباح. ولكن أية علاقة خاصة، إذاً، يجب أن تتميز بها القصدية، إذا كان بالإمكان توجيه القدرة حتى نحو ما لا يوجد؟ كيف يمكن لمثل هذا الشيء أن يكون ممكناً؟

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 385

من ناحية، أو أنها شيء آخر حقاً، أي إنها اختزال إقصائي وقابل للإقصاء، من ناحية أخرى. والجواب عن هذا الخطأ، كالجواب عن معضلة العقل- الجسم، يكمن في رفض البديلين معاً.

لكن الجواب عن الخطأ الثاني يتطلب منا أن نذهب إلى ما وراء حلنا لمعضلة العقل -الجسم والنظر في بعض السمات الخاصة للقصدية الداخلية. على سبيل المثال، إذا حاولنا أن نعامل تجاربنا البصرية الشعورية وكأنها مجرد ظواهر في العالم كالأحجار والجبال والهضم، إذاً فسيبدو أشبه بالمعجزة كونها قادرة على الإحالة. ولكن بالطبع على الرغم من أنها عمليات طبيعية، فإنها تمتاز بسمة خاصة. فهي في داخل الحالة التي تنطوي على هذه القصدية. ولا يمكن أن تكون التجربة البصرية نفسها إذا لم تكن تجربة تكمن قصديتها في كونها ترائي بأنني أرى هذا الشيء أمامي.

ولكن لماذا لا يتضح هذا الجزء؟ لماذا يتجاهل المرء أو يرغب في إنكار ذلك؟ لسببين. الأول الإخفاق في التمييز بين القصدية الداخلية والمستمدة والتشبيهية. إذا بدأت بالقصدية من النوع الذي نجده في الكلمات والجمل، أو، وذلك هو الأسوأ، إذا بدأت بالقصدية التشبيهية من النوع الذي نجده في النسب المجازية للقصدية، إذاً فلا بدَّ أن تبدو الإحالة أو التعلق شيئاً سرياً ملغزاً. وبالتأكيد لا بدَّ أن يبدو هناك قزم في مكان ما يفرض القصدية على الظواهر. والمصدر الثاني للخطأ هو إهمال مركزية الشعور. إذا تصورت أن القصدية ليس لها ارتباط جوهري بالشعور، إذاً فسيبدو لك أن هناك جميع أنواع القصدية في العالم، وسوف تحاول تحليلها من خلال العلاقات السببية أو شيء من هذا القبيل. والحل هو أن تبدأ بالقصدية الداخلية في أشكالها الشعورية. هنا يتبلور سؤال مهم حقاً: كيف تستطيع هذه الكلمة كلنتون أن تحيل إلى كلنتون الشخص وتمثله؟ لقد رأينا أن الكلمة ليست لها سوى قصدية اشتقاقية مستمدة. وبمجرد أن يتم اشتقاق القصدية، حينئذ تظهر أسئلة

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 386

التحقيق بالنسبة إلى الرغبات، وشروط التنفيذ بالنسبة إلى المقاصد، إلخ... فامتلاك شروط الإشباع هو سمة عامة لعدد كبير جداً من الحالات القصدية ذات المحتوى الخبري، وشروط الحقيقة هي حالة خاصة من شروط الإشباع.

يفضي هذا التمييز بين شروط الحقيقة والأنواع الأخرى من شروط الإشباع إلى السمة البنيوية الثانية للحالات القصدية.

اتجاه الملاءمة

من السمات البارزة للعقل أنه يربطنا عن طريق القصدية بالعالم الواقعي. وهذه هي ماهية القصدية، فهي الطريقة الخاصة التي يمتلكها العقل لربطنا بالعالم. وعلى غرار ذلك تبرز حقيقة أن هناك طرقاً مختلفة ترتبط بها المحتويات الخبرية بالعالم عن طريق أنماط مختلفة من الحالات القصدية. وتربط الأنماط المختلفة من الحالات القصدية المحتوى الخبري بالعالم الواقعي، إذا صحَّ القول، مع إلزامات مختلفة بالملاءمة. فيقال عن الاعتقادات والافتراضات: إنها صحيحة أو زائفة استناداً إلى ما إذا كان العالم حقاً هو الطريقة التي يمثلها الاعتقاد كوجود. ولهذا السبب أقول: إن للاعتقادات اتجاه ملاءمة من العقل إلى العالم. وربما جاز القول: إن من مسئولية الاعتقاد أن يجاري ويتناغم مع عالم موجود وجوداً مستقلاً عنه. أما الرغبات والمقاصد، من ناحية أخرى، فليس لها اتجاه ملاءمة من العقل إلى العالم؛ لأنه إذا لم يتمَّ إشباع الرغبة أو القصد فقد يصحُّ القول إنه ليس من مسئولية العالم، لكونه أخفق في مجاراة محتوى الرغبة والتناغم مع القصد. لقد ابتكر ج. ل. أوستن مصطلح «اتجاه الملاءمة»، غير أن أفضل مثال لإضاءة التمييز قدمته ج. أ. م. أنسكوم. في مثال أنسكوم، تعطي امرأة زوجها قائمة مشتريات مكتوبة بها مجموعة من الكلمات: مشروب، زبدة، لحم غنم. يأخذ الرجل القائمة ويذهب إلى السوبرماركت ويضع المشتريات في عربة التسوق ليجاري المواد المدونة في القائمة.

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 387

التمييز بين نمط

الحالات القصدية ومحتواها

لفهم بنية الحالات القصدية، نحتاج إلى أن نجري بعض التمييزات الأساسية عند بداية بحثنا. قبل كل شيء، مع أية حالة قصدية -كالاعتقاد أو الرغبة أو الرجاء أو الخوف أو الإدراك البصري، أو بنية أداء فعل ما- نحتاج إلى أن نجري تمييزاً بين محتوى الحالة ونمط الحالة الذي توجد عليه. هكذا، على سبيل المثال، يمكنك أن ترجو أن تمطر، أو تخاف أن تمطر، أو تعتقد أنها ستمطر. في كل حالة من هذه الحالات، لدينا المحتوى نفسه -وهو أنها ستمطر- غير أن المحتوى يُقدَّم لنا في أنماط قصدية مختلفة. وهذا التمييز بين المحتوى والنمط يُرحّل إلى الإدراكات والأفعال القصدية. تستطيع أن ترى أنها تمطر، بمجرد أن تعتقد أنها تمطر، وتستطيع أن تنوي الذهاب إلى السينما بمجرد أن ترغب في أنك ذهبت إلى السينما. في جميع هذه الأمثلة، المحتويات هي قضايا كاملة، ومن ثَمَّ لديها شروط الحقيقة، أو كما أفضل أن أقول: لديها «شروط إشباع».

نحتاج إذاً إلى فكرة أكثر عمومية من فكرة الحقيقة؛ لأننا نحتاج إلى فكرة لا تغطي تلك الحالات الشعورية فحسب كالاعتقادات التي يمكن أن تكون صحيحة أو زائفة، بل أيضاً حالات كالرغبات والمقاصد التي يمكن تحقيقها أو تثبيطها، وتنفيذها أو تجاهلها. ومثلما أعتقد أنني سأذهب إلى السينما الليلة، وهكذا تكون لدي حالة هي صادقة أو كاذبة، أستطيع أن أرغب في الذهاب إلى السينما الليلة أو أنوي الذهاب إلى السينما الليلة. غير أن رغباتي ومقاصدي لا يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة بالمعنى الحرفي. ما يبرز في اعتقادي كشرط حقيقة -وهو كوني أذهب إلى السينما الليلة- هو بالضبط ما يبرز في رغبتي كشرط لتحقيقها -وهو كوني أذهب إلى السينما الليلة. سأقول إذاً إن للحالات القصدية كالاعتقادات والرغبات شروط إشباع، وهو مصطلح يغطي شروط الحقيقة بالنسبة إلى الاعتقادات، وشروط

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 388

تصحيح الموقف بالقول: «حسناً، عزيزتي، سأشطب كلمة لحم غنم، وأكتب لحم بقر». والسبب في هذا التمييز أن الزوج، خلافاً للمفتش، تقع عليه مسئولية جعل العالم يتلاءم مع القائمة. على حين تقع على المفتش مسئولية جعل القائمة تتلاءم مع العالم. وما يصح على علاقة القوائم بالعالم يصح على الكلمات والعالم، كما يصح أيضاً على العقل والعالم. والتمييز بين الاتجاه من القائمة إلى العالم، ومن العالم إلى القائمة هو مثال على تمييزات أعم بين اتجاهات ملاءمة من الكلمة إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمة، وكذلك من العقل إلى العالم ومن العالم إلى العقل. أتمنى أن يكون هذا التمييز واضحاً. وأعتقد أنه حاسم في أية نظرية عن القصدية. فالاعتقادات، والإدراكات، والذكريات لها اتجاه ملاءمة من العقل إلى العالم، لأن هدفها يكمن في أن تمثل الكيفية التي توجد عليها الأشياء، وللرغبات والمقاصد اتجاه ملاءمة من العالم إلى العقل، لأن هدفها لا يكمن في تمثيل الكيفية التي توجد عليها الأشياء، بل الكيفية التي نودُّ أن تكون عليها الأشياء، أو نخطط لها لتكون عليها الأشياء.

حتى الآن لدينا في نبذتنا العامة سمتان عن بنية الحالات القصدية، وهما التمييز بين المحتوى الخبري ونمط الحالة القصدية، وفكرة اتجاه الملاءمة، بالإضافة إلى فكرة الاتجاهات المختلفة للملاءمة. ونستيطع الآن أن نضيف بعض التعقيدات لكل من هاتين السمتين. التعقيد الأول هو أنه لا تنطوي جميع الحالات القصدية على محتويات خبرية كاملة ونهائية. هكذا، إذا وقع رجل في حب ماري وكراهية بل، إذاً يشير محتوى هاتين الحالتين القصديتين إلى ماري وبل، والموقف الذي يتبناه إما أن يكون حباً أو كراهية. ويستقى تعقيد آخر من كون الحالات القصدية ليس لها كلها اتجاه ملاءمة من العالم إلى العقل أو من العقل إلى العالم. حقاً أن بعضها يفترض قبلياً أن الملاءمة حدثت أصلاً. على سبيل المثال، إذا أبديت أسفك لأنك أهنتَ صديقاً، أو أعربتَ عن ارتياحك لأن الشمس مشرقة، ففي كلتا الحالتين لديك حالة شعورية يفترض فيها أصلاً أنه تمَّ إشباع المحتوى الخبري، وهو أنك أهنتَ صديقاً

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 389

تعمل القائمة وكأنها أمر أو رغبة، وهكذا يكون لها اتجاه ملاءمة من العالم إلى القائمة. فمسئولية الزوج أن يحاول جعل العالم يتناغم ويجاري محتويات القائمة. فهو يحاول أن يجعل العالم، بصورة مشتريات، يتلاءم أو يجاري المواد في قائمته. ولكن لنفترض أن الزوج كان يتبعه مفتش، وأن المفتش يسجّل ما يضعه الرجل في عربة تسوقه. يكتب المفتش: مشروب، زبدة، لحم غنم، حتى إذا وصلا إلى منضدة المحاسب، كان لدى كلٍّ من الزوج والمفتش قائمتان متطابقتان. مع ذلك، فإن وظيفة القائمتين مختلفة اختلافاً جذرياً. من واجب قائمة المفتش أن تجاري واقعاً موجوداً مستقلاً؛ إذ تؤدي قائمة المفتش وظيفة وصف أو تقرير لما حدث فعلاً. يفترض أن تكون قائمته مجرد تمثيل للكيفية التي توجد عليها الأشياء. على حين تؤدي قائمة الزوج وظيفة تمكينه من تغيير الواقع ليجعله يجاري محتويات القائمة. المسألة في قائمة الزوج أنها لا تصف الواقع، ولا تمثل الكيفية التي توجد عليها الأشياء، بل تريد تغيير الواقع بحيث يجاري القائمة. في قائمة الزوج اتجاه ملاءمة من العالم إلى القائمة. ولقائمة المفتش اتجاه ملاءمة من القائمة إلى العالم. في لغتنا، هناك مفردات خاصة لوصف هذه التمثيلات التي تفلح أو تخفق في تحقيق اتجاه ملاءمة من القائمة (أو الكلمة) إلى العالم: فإما أن يقال: إنها صادقة أو كاذبة. والصدق والكذب هما اسم يطلق على النجاح والإخفاق في اتجاه الملاءمة من الكلمة إلى العالم.

يمكن أن ترى هذا التمييز بوضوح كبير إذا تخيلت ما يحدث في حالة خطأ. افترض أن المفتش يصل إلى بيته ويدرك أنه ارتكب خطأً. إذ لم يأخذ الزوج لحم غنم، بل لحم بقر. يستطيع المفتش ببساطة أن يصحح الأشياء بشطب كلمة لحم غنم، وكتابة لحم بقر. والآن فإن القائمة صحيحة في تحقيق اتجاه ملاءمة من القائمة إلى العالم. لكن لو وصل الزوج إلى بيته وقالت زوجته: «أيها الغبي، كتبت لحم غنم في القائمة، لكنك جلبت لي لحم بقر بدلاً منه»، فإن الزوج لا يستطيع

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 390

دون أن تكون له مجموعة من الاعتقادات والرغبات فيما يتعلق بذلك الشخص. وتلك الاعتقادات والرغبات، في الجزء الأكبر منها، هي مكونات الحب الذي يضمره هذا المرء لذلك الشخص، وهكذا على الرغم من أن الحب من الناحية السطحية ليس له شروط إشباع، فإن أية حالة محبة فعلية يضمرها شخص لآخر تتكون في الجزء الأكبر منها من مجموعة من الحالات القصدية التي تمتلك شروط إشباعها. وتلك الحالات القصدية التي تنطوي على محتوى خبري كامل، كالعار والفخر، ولكنها لا تنطوي على اتجاه ملاءمة تشكلها في الجزء الأكبر منها الاعتقادات والرغبات التي لها اتجاه ملاءمة، ومن ثَمَّ فالحالات القصدية التي ليس فيها اتجاه ملاءمة تنطوي على شروط إشباع. على سبيل المثال، إذا شعرتُ بالفخر لفوزي بالسباق، إذاً في الأقل يجب أن (أ) أعتقد أنني فزت في السباق و(ب) أجد من المرغوب فيه أو أرغب في أن تكون الحال أنني فزت في السباق.

السببية القصدية

قلت: إن القصدية هي تلك السمة العقلية التي يمثل بها العقل داخلياً الموضوعات والحالات في العالم. غير أن عقولنا توجد أيضاً في اتصال سببي دائم مع العالم. حين نرى الأشياء، تسبب الموضوعات التي نراها تجاربنا البصرية عنها. وحين نتذكر الأحداث التي جرت في ماضينا، فإن تلك الأحداث الماضية تسبب ذكرياتنا الحاضرة. وحين ننوي القيام بحركات جسدية، فإن تلك المقاصد والنيات تسبب حركاتنا الجسدية. في كل حالة، نجد مكوناً سببياً وقصدياً معاً. وإنه لأمر جوهري لتأدية وظيفة القصدية، بل في الحقيقة أمر جوهري لبقائنا في العالم أن تتداخل قدرة التمثيل في العقل والعلاقات السببية في العالم بطريقة نسقية. والشكل الذي يتداخلان به هو السببية القصدية. يختلف هذا الشكل من السببية اختلافاً جذرياً عن السببية في كرة البلياردو أو عند هيوم: حيث يعمل السبب والنتيجة بالطريقة التي

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 391

وأن الشمس مشرقة. في مثل هذه الحالات، أقول: إن فيها اتجاه ملاءمة باطلاً. وبالطريقة نفسها التي تهدف فيها الاعتقادات إلى أن تكون صحيحة وتهدف فيها الرغبات إلى أن تتحقق وهكذا تحقق اتجاه ملاءمة من العالم إلى العقل، فإن كون المرء مرتاحاً أو آسفاً لا يمتلك النوع نفسه من الهدف، وإن كان لكل حالة قصدية محتويات خبرية قد تُشبع وقد لا تُشبع. وبغية تفسير هذا التمييز، أقول فقط: إن اتجاه الملاءمة باطل.

شروط الإشباع

نستطيع الآن أن نوحد هذه النقاط المتنوعة عن القصدية بوصف السمة التي لها بوصفها قصدية. وقد لمّحت إلى هذه السمة سابقاً بإيجاز حين قدمت فكرة شروط الإشباع. وأعتقد أن مفتاح فهم القصدية يكمن في شروط الإشباع. يتمّ إشباع الحالة القصدية إذا كان العالم هو الطريقة التي تمثلها الحالة القصدية كوجود. فتصحّ الاعتقادات أو تتزيف، وتتحقق الرغبات أو تخيب، وتنجز المقاصد أو تهمل. في كل مثال، يتم إشباع الحالة القصدية أو لا بالاستناد إلى ما إذا كانت هناك مجاراة وتناغم حقاً بين المحتوى الخبري والواقع الممثَّل.

وإنه لمن السمات العامة للحالات القصدية ذات المحتوى الخبري أن تكون لها شروط إشباع. والحقيقة أنه لو أراد أحد شعاراً لتحليل القصدية، فأنا أعتقد أنه سيكون على النحو الآتي: «ستعرفها من خلال معرفة شروط إشباعها». وإذا أردنا أن نعرف الحالة القصدية لشخص ما على وجه الدقة، فيجب أن نسأل أنفسنا تحت أية شروط بالضبط يمكن إشباعها أو لا يمكن إشباعها. والحالات الشعورية التي لا تنطوي على محتوى خبري كامل، مثل الحب والكراهية، ومن ثَمَّ لا تمتلك شروط إشباع، هي فيما أعتقد، تشكلها جزئياً حالات قصدية تنطوي على محتوى خبري كامل، ومن ثَمَّ فلها شروط إشباع. ولذلك لا يستطيع المرء، مثلاً، أن يحبَّ شخصاً،

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 392

العالم إلا إذا سببت الحالة نفسها الحدث في العالم الذي تتلاءم معه، أي إلا إذا سبب القصد نفسه الحدث في رفع ذراعي.

والسببية القصدية ذات أهمية كبرى بإطلاق في فهم تفسير السلوك الإنساني ومن ثَمَّ في فهم الفروق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. يعمل السلوك الإنساني، حينما يكون عقلياً، على أساس الأسباب، غير أن الأسباب لا تفسر السلوك إلا إذا كانت العلاقة بين العقل والسلوك منطقية وسببية. هكذا تستخدم تفسيرات السلوك الإنساني العقلي في الجوهر جهاز السببية القصدية. مثلاً، افترضوا أننا نفسر غزو هتلر لروسيا بالقول إنه أراد تغيير الحياة (Lebensraum) في الشرق. يبدو هذا التفسير ذا معنى بالنسبة إلينا لأننا نفترض (أ) أن هتلر أراد تغيير الحياة في الشرق (ب) أنه اعتقد أن بإمكانه تغيير الحياة عن طريق غزو روسيا، (ج) يوفر (أ) و(ب) معاً، عن طريق السببية القصدية، في الأقل جزءاً من التفسير السببي للقرار، ومن ثَمَّ للقصد، في غزو روسيا، و(د) أن القصد من غزو روسيا هو في الأقل جزء من سبب غزو روسيا، عن طريق السببية القصدية.

من المهم أن نؤكد أن مثل هذه التفسيرات ليست حتمية من حيث الشكل. وشكل التفسير الاستقصادي للسلوك لا يعني أن الفعل لا بدَّ أن يحدث، وأن الأسباب القصدية كافية لتحديد أن ذلك الفعل لا بدَّ من أدائه. ولا هي حتمية عملياً، إلا في الحالات المرضية الشاذة. حين أفسر سلوكي الخاص بالإعراب عن اعتقاداتي ورغباتي التي دفعتني إلى فعله، فأنا لا أعني في العادة أنني لم يكن بوسعي فعل شيء سواه. نمطياً حين أستنتج من رغباتي واعتقاداتي ما يجب أن أقوم به، فهناك فجوة بين أسباب قراري بشكل اعتقادات ورغبات والقرار الفعلي، وهناك فجوة أخرى بين القرار وأداء الفعل. والسبب في هاتين الفجوتين أن الأسباب الاستقصادية للسلوك ليست كافية لتحديد السلوك. وتتوافر بعض الاستثناءات على ذلك في حالات الإدمان والاستحواذ والانفعال القهري، وبعض الأشكال المرضية الأخرى. حين أقرر لمن

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 393

يعملان بها، إما لأن السبب هو تمثيل للنتيجة، أو لأن النتيجة هي تمثيل للسبب. وها هي بعض الأمثلة على كيفية عمل ذلك. إذا أردت أن أشرب الماء، ثم أشرب الماء لإشباع رغبتي في شرب الماء، إذاً فحالتي العقلية، أي الرغبة (في أنني أشرب الماء) هي التي تسبب حالة أنني أشرب الماء. فالرغبة في هذه الحالة تسبب شرط إشباعها وتمثله معاً. أحياناً يكون جزءاً من شرط إشباع الحالة القصدية نفسها أنها لا يمكن إشباعها إلا إذا عملت سببياً. على سبيل المثال، إذا نويت أن أرفع ذراعي، إذاً فالنية تتطلب أن يتم إشباع أكثر من مجرد أن أرفع ذراعي. بل من صلب شروط إشباع قصدي هنا في أن أرفع ذراعي أن يسبب هذا القصد نفسه رفع ذراعي. لهذا السبب، أقول: إن المقاصد تحيل إلى ذاتها سببياً. لا يتم إشباع القصد إلا إذا سبب القصد نفسه بقية شروط إشباعه. ولن أنجح في تنفيذ قصدي في رفع ذراعي إلا إذا (أ) رفعت ذراعي حقاً، (ب) وسبب قصدي في رفع ذراعي رفعي لذراعي.

لا تحضر مثل هذه الإحالة الذاتية السببية فقط في الحالات «الإرادية»، كالمقاصد، بل أيضاً في الحالات «المعرفية» كالإدراك والذكرى. هكذا، إذا رأيت شجرة، مثلاً، فعلاً، فيجب أن تكون الحالة ألاّ تكون لديَّ فقط تجربة بصرية تتمثل شروط إشباعها في أن هناك شجرة، بل في حقيقة أن تلك الشجرة يجب أن تسبب التجربة البصرية نفسها التي لها شروط الإشباع ذاتها. وكذلك الحال مع الذكرى. إذا تذكرت سباق تزلج على الجليد جرى في مكان ما في الماضي، إذاً فمن صلب شروط إشباع تلك الذكرى ليس فقط أنني خضت سباق التزلج ذاك، بل إن حدث خوضي لذلك السباق يجب أن يسبب الذكرى التي لها شروط الإشباع هذه. مع الحالات المعرفية ذات الإحالة الذاتية السببية، كالإدراك والذكرى، لدينا اتجاه ملاءمة من العقل إلى العالم واتجاه سببية من العالم إلى العقل. فلا «تتلاءم» حالتي العقلية في الذكرى أو الإدراك مع العالم إلا إذا سبب العالم الحالة التي لها تلك الملاءمة. في الحالات الإرادية، كالمقاصد، تنقلب الاتجاهات. فلا «يتلاءم» قصدي في رفع ذراعي مع

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 394

الكيفية التي تمكنني من الانسجام مع العالم.

أعتقد أن أمثل الطرق لرؤية هذه النقطة تكمن في تناول أي مثال عن حالة قصدية من الحياة الواقعية ورؤية أية أشياء أخرى عليَّ أن أفترضها مسبقا؛ لكي تعمل الحالة القصدية. الآن لديَّ القصد في أن أذهب إلى مكتبة لشراء بعض الكتب وإلى مطعم لتناول الغداء. يفترض هذا القصد المعقد جهازاً ميتافيزيقياً هائلاً. تكمن بعض أجزاء هذا الجهاز على السطح في شكل الاعتقادات والرغبات. مثلاً، لا أرغب إلا في بعض أنواع الكتب، وأعتقد أن مطعماً معيناً هو أفضل المطاعم في الجوار. ولكن يكمن تحت هذه الأفكار الشعورية جهاز واسع من الضروري جداً أن يؤخذ بوصفه مجرد اعتقادات ورغبات أخرى. مثلاً، أنني أعرف كيف أمشي وكيف أتصرف في المكتبات والمطاعم، وأسلم بأن الطابق الذي تحتي سيسندني، وأن جسدي سيتحرك بوصفه كياناً مفرداً موحداً دون أن يتطاير أجزاءً، أسلم بأن الكتب في المكتبة ستكون قابلة للقراءة، وإن لم تكن صالحة للأكل، وأن الطعام في المطعم سيكون صالحاً للأكل، وإن لم يكن قابلاً للقراءة. بمعرفتي كيفية الاهتمام بهذه المواقف، لدي القدرة على وضع الطعام في فمي وليس في أذني، والقدرة على قراءة الكتاب بحمله أمام ناظريّ وليس بتمريره على معدتي. يمكن للمرء أن يتخيل عالماً من الخيال العلمي مختلفاً كلَّ الاختلاف، يأكل فيه المرء بإمعانه النظر في عينيه، أو يقرأ فيه بالمضغ أو الابتلاع، لكني لا آخذ افتراضاً لأجعله يؤثر في أنني أعيش هذا النوع من العالم وليس ذاك. بل إنني بالأحرى أسلّم بقدر هائل من الميتافيزيقا.

قسم من الخلفية شيء مشترك بين جميع الثقافات، على سبيل المثال، نمشي جميعاً منتصبي القامة، ونأكل جميعاً بوضع الطعام في أفواهنا. وأسمي مثل هذه الظواهر الكلية بـ«الخلفية العميقة»، غير أن هناك افتراضات خلفية تتنوع من ثقافة إلى أخرى. على سبيل المثال، في ثقافتنا نأكل الخنازير والأبقار، ولا نأكل الديدان والجراد، ونأكل في بعض الأوقات من النهار دون بعض. في مثل هذه القضايا تتنوع

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 395

سأصوّت في انتخابات معينة، فإن التفسير الاستقصادي لسلوكي لا يقدم شروطاً كافية سببياً. وهذا يغاير حالة تناول مدمن على الهيروين مخدرات لأنه يريد الهيروين ويعتقد أن المخدرات هيروين. في هذه الحالة، لا يستطيع المدمن مساعدة نفسه، ولا يقدم التفسير شروطاً كافية سببياً. والاسم الذي غالباً ما يعطى لهذه الفجوة هو «حرية الإرادة». وتبقى الكيفية التي يمكن أن تكون بها حرية الإرادة مشكلة غير محلولة في الفلسفة، إذا قلنا: إنه لا توجد هناك فجوات مقابلة لها في الدماغ.

خلفية القصدية

لا تؤدي الحالات القصدية وظيفتها بمعزل عن سواها. من أجل أن أعتقد أن كلنتون هو رئيس الولايات المتحدة، أو أنوي الذهاب إلى التزلج في عطلة نهاية الأسبوع القادمة، أو أرجو أن أقلل من مبلغ ضريبة الدخل هذه السنة عن السنة الماضية، لا بدَّ أن أمتلك أيضاً عدداً من الحالات القصدية الأخرى. على سبيل المثال، لكي أمتلك هذه الحالات، يجب أن يكون لديَّ اعتقاد أن الولايات المتحدة جمهورية، واعتقاد أن مناطق التزلج تقع على مسافة قريبة يمكن الوصول إليها من بيتي، واعتقاد أن في الولايات المتحدة نظاماً لضريبة الدخل عند مواطنيها. على أنه بالإضافة إلى هذه الاعتقادات وكذلك الحالات القصدية الأخرى، يجب أن يكون لديَّ شبكة من القدرات والافتراضات المسبقة التي تمكّنني من الانسجام مع العالم. وهذه الشبكة من القدرات والإمكانات والميول والعادات، والمنازع والافتراضات المسبقة المسلم بها، و«معرفة الكيفيات» التي سميتها على العموم بالخلفيات والأطروحة العامة عن «الخلفية» التي كنت أفترضها طوال هذا الكتاب هي أن جميع حالاتنا القصدية، وجميع اعتقاداتنا الخاصة وآمالنا ومخاوفنا وغير ذلك، لا تعمل بالطريقة التي تعمل بها -أي إنها لا تحدد شروط إشباعها- إلا على خلفية معرفة

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 396

الحواشي

(*) تخضع صياغة الجمل من وجهة نظر علم اللغة التحويلي التوليدي عند تشومسكي إلى إجراءات أو حركات التحويل. ونقلات التحويل جميعاً هي قواعد استبدالية تعكس قاعدة كلية واحدة يشار إليها بإسم «نقلة ألفا» .(Alpha Move) فنقلة أو حركة ألفا هي القواعد الكلية الشاملة التي تشكل الأساس لإجراء التحويلات النحوية في لغة معينة- (المترجم).

(×) المقصود بالمغالطة القزمية هي تفسير القصدية بافتراض نسبة قصدية معينة إلى قزم صغير في داخل رأس الإنسان، سواء أكان هذا القزم على شكل خلية عصبية أم فوتون ضوئي. والحال أن مغالطة القزمية ليست تفسيرا للقصدية، لأنها ستنتقل من قصدية الإنسان إلى قصدية القزم الصغير في داخل رأس الإنسان، دون أن تقدم تفسيرا للقصدية ذاتها. (المترجم).

Human Sciences Arabic11-n. Side 4/16/12 3:21 PM Page 397

الثقافات، وأنا أدعو مثل هذه السمات بـ«ممارسات الخلفية الثقافية المحلية». وبالطبع ليس هناك خط تقسيم حاد يفصل بين الخلفية العميقة والممارسات الثقافية المحلية.

النقطة التي أود تأكيدها لبحثنا الحالي هي أن القصدية لا تعمل كقدرة عقلية منفصلة. ولا تعمل الحالات القصدية بالطريقة التي تعمل بها إلا إذا أعطيت شبكة مسلماً بها من قدرات الخلفية التي هي ليست بحالات قصدية إضافية. الخلفية، بمعنى مهم من المعاني، سابقة على القصدية. لكي يحدد قصدي في شراء الكتاب وتناول الطعام ما يجب أن أقوم به -أي لكي يحدد له شرط إشباعه- يجب أن أمتلك كثيراً من القدرات التي هي ليست جزءاً من ذلك القصد، وليست جزءاً من شبكة حالاتي القصدية الأخرى. والتفكير بالقصدية بهذه الطريقة، أي بوصفها مجموعة من العمليات الفكرية التي لا تعمل بالطريقة التي تعمل بها إلا على خلفية قدرات غير مفكر بها، يفتتح عدداً من حقول البحث التي تتخطى مجال هذا الكتاب، ولكنها تظل تستحق الذكر. على سبيل المثال، نحن نفكر عادة في العقلية بوصفها قضية اتباع قواعد العقلية قصدياً. وإني لأعتقد أن قدرتنا على التفكير العقلي والسلوك هي في الجزء الأكبر منها قدرة خلفية. زد على ذلك أننا عادة ما نفكر بالعصاب بوصفه قضية اعتقادات ورغبات لاعقلية أو مكبوتة في الغالب. ينتمي كثير من أنواع العصاب إلى هذا النمط، لكن بعضها هو عصاب خلفية. على سبيل المثال، حين يكون المريض متشدداً جداً في اهتماماته بنفسه وبالناس الآخرين، فلا يكتفي بالرغبات والاعتقادات اللاعقلية، بل يتخذ موقفاً نحو تجاربه مما يجعل من المستحيل عليه أن يتلاءم بطريقة مرنة ومتكيفة وإبداعية.

هذا المقال هو الفصل الرابع من كتاب جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع : الفلسفة في العالم الواقعي، ٢٠٠٠.